

حوار حضارات أم صراع؟ نحو رؤية متوازنة للتعايش.

د. عيسى عودة برهومة
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
الجامعة الهاشمية - الأردن

جوهر الفكرة ومظاهر التطبيق

شاعت في العقد الأخير من القرن العشرين أربع مقولات أو أربعة مفاهيم كانت العناوين العريضة لمرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وأنظمة الاشتراكية في شرقي أوروبا . وهذه المقولات هي : "النظام العالمي الجديد" و "نهاية التاريخ" و "صراع الحضارات" و"العولمة الاقتصادية الجديدة" التي غدت علماً على بداية القرن الحادي والعشرين وبداية الألفية الثالثة، غير أن الحديث عن صدام أو صراع الحضارات تحديداً شغل الكثيرين من الإستراتيجيين والمهتمين بالشأن الدولي وبمسألة العلاقات الدولية، حيث بات يشغل جزءاً كبيراً من المساحات الإعلامية - المقروءة والمكتوبة والمسموعة - المخصصة لمعالجة القضايا الدولية، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك وواشنطن والتداعيات المرافقة لها. فما هي حقيقة هذا الصراع، وما هي منطلقاته وتداعياته ؟

إن اكتفينا بما تلقينه كلمة الحضارة في الأذهان وهو "تقدم المجتمع البشري" فهل تقدم المجتمعات البشرية في الحقول المادية هو الحضارة ؟ هناك من يرفض ذلك ولعل المنطق القرآني يرفضه أيضاً، فالبناء المادي مرفوض إذا لم يكن قائماً على أساس معايير إنسانية أو على معايير التقوى بالتعبير القرآني. يقول تعالى " أتنبون بكل ريع آية تعبثون، تتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، اتقوا الله وأطيعون"⁽¹⁾ فالقوة المادية تكون سبب البطش والتجبر إذا لم تكن مقرونة بقيم ذات بُعد ديني .

وليس بعيداً عما سبق ذكره، فإنه ليس ثمة إجماع على مفهوم الحضارة، فضلاً عن أن بعضهم يماهي بين هذا المفهوم ومفهوم الثقافة، خاصة عند التعامل مع اللفظ الأجنبي والوقوع في محك الترجمات المختلفة، كما أن تصنيفات الحضارة تتفاوت تبعاً لتفاوت المعايير، الأمر الذي من شأنه أن يخلق تناقضات وإرباكات حادة عند الحديث عن صدام الحضارات أو حتى حوارها.

(1) سورة الشعراء: 128-131

وأما على صعيد اللفظ الأجنبي فقد ظهرت كلمة (civilisation) بالفرنسية عام 1734 وأصلها من كلمة (civilise) أي متحضّر أو مدني⁽¹⁾ واستخدمت أيضاً كلمة (culture) للدلالة على ذات المعنى.

ولعلّ الالتباس نابع من الالتباس في معاني المصطلحات، وفي تصور السياقات التي ظهرت واستخدمت فيها مصطلحات الثقافة والحضارة في العصر الحديث، فيبدو أن هنتجتون يستخدم تعبير الثقافة والحضارة بمعنى واحد بل إنّ تعبير الحضارة عنده يشمل الثقافة بمعناها الإثنولوجي، أي بما تحمله من معان ترتبط بالدين وأنماط الحياة والعلاقات والطقوس والعبادات فهي بهذا المعنى تشمل سمات الأقوام والشعوب والجماعات الدينيّة والمذهبية والعرقية، فهذه كلها في استخدامه المعلن أو الضمني حضارات، والأمثلة التي استخدمها هنتجتون للتدليل على صحة ما يذهب إليه بشأن صراع الحضارات تشي بهذا المعنى، فذكر مثلاً "مساندة تركيا وإيران لأذربيجان وشعبها أشقائهما في الدين والعنصر واللغة" (2)

أما الألماني (شبنجلر - 1936) في كتابه انحطاط الغرب فقد أطلق لفظ (culture) على الحضارة بمعنى الوحدة الأساسية أو الحدث الأوّل في الاجتماع والتاريخ وبصورة أوضح فهو يطلق لفظ (culture/ثقافة) على دور الفتوة وطور الإنتاج الروحي من الحضارة، في حين أطلق لفظ (civilisation/الحضارة) على طور الهرم والركود هذا في ضوء نظريته إلى الحضارات إذ يرى "أن الثقافة والحضارة تتعاقبان وهو تصور مستوحى من البيولوجيا، فيمثل الحضارات بكائنات حيّة وبالتالي فهي قابلة للموت"⁽³⁾ وفي رأيه يتميز طور الحضارة بالإنتاج المادي وحده.

ونلمح هذا اليأس وتلك النظرة السوداويّة فيما يتعلق بموت الحضارة وعلى وجه الخصوص الحضارة الغربيّة عند (أرنولد توينبي)⁽⁴⁾ ، وذلك بعقد مقارنة بين التاريخ المعاصر والتاريخ القديم للحضارة الغربية والحضارات الأخرى، فهو يرى أنّ النزعة العسكريّة للدول وأهواء القلة المتحكمة في قرارات الحرب هي التي تدفع بالحضارات إلى الانتحار، ففي عام 1947 ألقى أرنولد توينبي محاضرة بعنوان "الصراع بين الحضارات" وتم تضمينها في كتابه /civilization on Trial

(1) رولان بريتون: جغرافيا الحضارات، ص 23

(2) مقال الإسلام والغرب "صدام أم حوار؟" محمد براو عن موقع islamonline.net

(3) رولان بريتون: جغرافيا الحضارات، ص 23

(4) انظر كتاب مختصر دراسة للتاريخ: أرنولد توينبي ترجمة فؤاد محمد شبل، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة

الحضارة في الميزان) ويمكن اعتبار هذه المحاضرة نصّاً ثميناً في هذا الصدد، إذ يرى أنّ الحادثة الكبرى والأهم في القرن العشرين، التي سيقف عندها المؤرخون كثيراً في القرون القادمة هي حادثة اصطدام الحضارة الغربية بسائر الحضارات في العالم وتتبع أهمية هذا الحدث في رأيه من أنه الخطوة الأولى نحو توحيد العالم في مجتمع واحد، وذلك عن طريق تحطيم التراث الاجتماعي الإقليمي للحضارات الأخرى عند اصطدامها بالتراث الاجتماعي الغربي⁽¹⁾ وإنّ نوعيّة وفراة هذا التوحد الاجتماعي للعالم لا تكمن أو تتمثل في ميدان الفنون الصناعية والاقتصادية ولا في ميدان الحرب والسياسة، وإنما تتمثل في ميدان الدين.

والديانات الأربع الكبرى ذات الرسالة العالميّة التي تقوم اليوم في العالم: الإسلام، المسيحية، والهندوسية والبوذية، هي من الناحية التاريخية ثمرة الصراع الذي دار بين الحضارة اليونانية – الرومانية ونظيراتها المعاصرة.

إذاً ينظر توينبي إلى تاريخ الحضارات على أنه صراع بين الحضارات، وأنّ هذه الحضارات إنما تقوم على الدين كمعنقد رئيس ومرجع أساس في قيام الحضارة.

وبعد فقد يكون الخوف المتمثل في نظرية تردي التاريخ عند توينبي، وشيخوخة الحضارة عند شبنلجر مفهوماً ومسوّغاً حيال حربين عالميتين ومدمّرتين.

وفي ضوء هذه النماذج التي طرحناها لمفكرين تعاملوا مع مصطلح الحضارة تعاملاتاً مختلفاً نلمح خيطاً شفيفاً يربطها معاً فالحضارة في أنظار هؤلاء الثلاثة منظومة قيمية لن يكتب لها البقاء إلا بقدر ما تحافظ على هذه المنظومة بغض النظر عن الحضارة التي يفترضها كلّ منهم لتكون في الصدارة والطليلة .

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينبني مفهوم الحضارة عند ابن نبي على اعتقاده الراسخ بأنّ مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تقدمها.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة فقه حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أقولها – يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة يتحدد عنده بضرورة توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفرادها في كل طور من

(1) ربّما كانت هذه إشارة مبكرة إلى العولمة أو الثقافة الكونية التي ينادي بها الغرب اليوم.

أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه" (1)

ويتبين من خلال هذا أن مفهوم الحضارة عند ابن نبي شديد الارتباط بحركة المجتمع وفاعلية أبنائه؛ سواء في صعوده في مدارج الرقي والبهاء أوفي انحطاطه وتخلفه .

أما العناصر الضرورية التي تتشكل منها الحضارات عند مالك بن نبي فنثلاثة:

1. الإنسان 2. التراب 3. الوقت

فالإنسان هو العنصر الفاعل المنتج للحضارة منتفعاً بالعناصر المادية التي كان التراب رمزاً لها في مثلث بن نبي، ويبقى العنصر الثالث وهو العنصر الزمني فإنّ الغرس يحتاج إلى وقت يؤتي أكله "فالحضارة مرتبطة بالتاريخ لأن التاريخ هو الزمن الذي تحتاج إليه الثمرات الحضارية لتبرز إلى حيّز الوجود" (2)

وأمر آخر تدور حوله أطروحة مالك بن نبي الحضارية وهو ضرورة إبداع بدائل فكرية ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها كما هي من الغرب، ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشكلاتنا الحضارية والاجتماعية؛ لأنه يعتقد - كغيره من الدارسين للحضارات الإنسانية - أن هناك خصوصيات تتميز بها كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأنّ الحضارة إبداعٌ وليست تقليداً أو تبعيةً " فبعض القيم لا تباع ولا تشتري، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمره جهد متواصل، أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة ويصنع الخير في قلوب الأبرار" (3)

- الدورة الحضارية عند ابن نبي

استخلص ابن نبي من قراءاته المتعددة للتاريخ البشري وفلسفته، ولتاريخ الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص أنّ مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، قلما تتجو أي أمة من الأمم من جريانه وهذا في نظره هو الذي يجعل الأمة في فترة من الفترات التاريخية الحضارية تسجل مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص19-20

(2) د. حسين مؤنس: الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، ص15

(3) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص15

تسجل عليها في فترات أخرى انتكاسات وهزائم حضارية وعمرانية وعسكرية، وغير ذلك من الحالات المرصية التي تهوي بالأمة إلى مهاوي التخلف والانحطاط في آخر طور من أطوار دورتها الحضارية .

ويعقد ابن نبي مقارنة بين هذا القانون أو السنة الحضارية والطبيعة ونواميسها التي تخضع لها باقي المخلوقات في الكون؛ فالיום يبدأ بالشروق فالزوال ثم يتبعهما الغروب الذي يسدل الظلام على الكون، والشهر كذلك يبدأ ببزوغ الهلال ثم يستكمل تدريجياً دورته في إطار سلسلة دورية مستمرة.

وانطلاقاً من هذا يقول ابن نبي : "إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر" (1)

ولا يعني هذا أن التاريخ يفرق هداياه أو يوزع أمجاده لأي كان، كما تنتشر الشمس أشعتها، لكن التاريخ كتلة من السنن والنواميس الإلهية التي تتحكم في توجيه الأفراد والمجتمعات على السواء وهذه السنن لا بد من استيعابها والسير على هداها، "فمن عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها وإنما يتركها لأحلامها التي تطر بها حيناً وتزعجها حيناً آخر؛ تطربها إذ ترى في نومها أبطالها الخالدين وقد أدوا رسالتهم، وتزعجها حيناً تدخل صاغرةً في سلطة جبار عنيد" (2)

وبعد في تلك كانت الأطروحة الحضارية لمالك بن نبي ونلاحظ فيها ما يأتي:

أولاً: على الرغم من اهتمام ابن نبي بقضايا الحضارة ومشكلاتها فإن ذلك لم يجعله ينحو بتحليلاته منحى التجريد والنظر البعيدين عن هموم الأمة الإسلامية وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

ثانياً: تتبع مالك بن نبي لواقع الأمة الإسلامية ورصده لمختلف الظواهر لم يجعل فكره يتيه في طلب حلول جزئية أو ترفيحية (إن صحّ التعبير) لمعالجة هذا الواقع، بل نفذ ببصيرته ليكشف الخيوط الرابطة لتلك الظواهر، وليضع الحلول المناسبة لمشكلات الأمة بصورة قوانين دقيقة.

(1) نفسه:ص19-20

(2) نفسه:ص49

"فكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد الأبعاد المشكل، يحدد العناصر الأساسية للإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجاً محدداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ"⁽¹⁾

فوكوياما: التاريخ يصل إلى نهايته عند تحقق غايته

فرانسيس فوكوياما، باحث أمريكي ذو أصل ياباني، كان خبيراً في مركز البحوث التابع لوزارة الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي عام 1989 نشر في مجلة (المصلحة القومية) مقالة بعنوان "نهاية التاريخ؟" دارت حولها ضجة إعلامية وفكرية كبيرة، والحق إن أطروحة فوكوياما وأطروحة هنتجتون تتدرجان في حقل الدراسات الاستراتيجية التي تحمل تصورات ورؤى مستقبلية، وهو نوع من الدراسات صار يتركز في العقود الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وليس فوكوياما وهنتجتون أول من كتب أو نظّر في هذا المضمار، فقبلهما كان توفلر في مطلع السبعينات قد تصدّى لدراسة تطور الحضارة الإنسانية "وأصدر مجموعة من الكتب حاول من خلالها أن يوجه العالم نحو إحداث ثورة في طريقة التفكير وفي التوجهات الاقتصادية والسياسية"⁽²⁾ وفي عام 1988 كتب المؤرخ (بول كنيدي) كتاباً عن صعود القوى العظمى وسقوطهما، وإذن فليست قدم سبق لهما غير أن ما قدماه شكّل انعطافة في مسار التفكير المستقبلي فيما يتعلق بمصائر الأمم والحضارات.

وبالعودة إلى أطروحة فوكوياما نجده يفترض أن التغييرات التي طرأت على العالم معه انهيار الاتحاد السوفيتي مؤذنةً بنهاية التاريخ بوصفه تاريخاً، فضلاً عن طرحه نهاية حتمية (في ظنه) لخط التطور الأيديولوجي للبشرية وتعميم الديمقراطية الليبرالية الغربية بوصفها بديلاً عن كل الأيديولوجيات الأخرى والشكل النهائي للحكم الإنساني.

وقد ناقش فوكوياما في أطروحته التحديات التي تواجه الليبرالية الغربية وحاول أن يقوِّض أركان تلك التحديات مانحاً الوجود والحقيقة المطلقة لليبرالية الغربية فهو يرى أن الصراع في القرن العشرين تمركز في ثلاثة أقطاب:-

1. الليبرالية الغربية التي يدعو لها وينافح عنها.

2. الأيديولوجية الفاشية التي يرى أنها دُمّرت مادياً في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية.

(1) جودت سعيد: مذهب ابن آدم الأول، ص14-15

(2) بحث الدكتور ماهر شريف في كتاب صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟، ص148

3. القطب الشيوعي الذي ساد في الصين والاتحاد السوفيتي ربحاً من الزمان حتى قضي عليه بتوصل ميخائيل جوربا تشوف إلى السلطة وانهيار الاتحاد السوفيتي.

ونلاحظ كيف حَلَّت ساحة الصراع العالمي من الأيديولوجيات التي مثلت تحدياً لليبرالية الغربية، ولكن هل يعني هذا أنّ الليبرالية الغربية لن تواجه تحديات أخرى تعرقل مسيرتها ؟ في طرح فوكوياما احتمال أن تبرز تحديات جديدة أمام الليبرالية:

1. التحدي الديني الذي لا يتخوف منه فوكوياما بل يرى أن الليبرالية كانت محصّلة ضعف المجتمعات ذات الأسس الدينيّة وهو إذ لا يتخوف من الديانتين المسيحية واليهودية يرى أنّ الإسلام وحده هو الذي يتبنى هدف إقامة دولة دينية قائمة على شرائع إسلامية.

2. التحدي القومي الذي لا يرى أنّه يشكل خطراً على الليبرالية في الغرب وإنما تسود القومية بأبعادها المختلفة - في رأيه - في العالم الثالث وحده.

وبعد فإنّ طرح فوكوياما يخلص إلى أنّ العالم حين يصل إلى نقطة النهاية بانتصار الليبرالية الغربية (سيكون عالماً خالياً من الأيديولوجيا) وعليه سينقسم العالم إلى قطبين كبيرين:

1. قطب بلدان العالم الثالث التي ستظل غارقة في مستنقع التاريخ.

2. قطب البلدان الغربية التي ستشغل بالاقتصاد والحاجات الاستهلاكية.

-نهاية التاريخ: أطروحة مؤدّجة

لقد وقع فوكوياما في محذور أراد اجتنابه وهذا ظاهرٌ في عدة نقاط في أطروحته :

• قال إن نهاية التاريخ نهاية للأيديولوجيات وهذا المسمار الأخير في نعشها في الوقت الذي منح فيه إكسير الحياة والبقاء للأيديولوجيا التي يصدر عنها وهي الليبرالية الغربية. فضلاً عن عدم قدرتنا أن نتعامل مع الأيديولوجيا تعاملاً بيولوجياً فنقضي بموتها وحياتها، فالأيديولوجيات لا تختفي في الواقع وإنما تضمّر وتضمحل لتحل مكانها أيديولوجيات أقوى، فالأيديولوجيا إن لم تنجح في فرض نفسها على الغالبية لسبب من الأسباب فإنها تبقى خاصة بالمؤمنين بها والداعين إليها.

• وإذا سلّمنا بتقسيم فوكوياما دول العالم إلى فئتين (الدول الغربية ، ودول العالم الثالث) فإن هذا التقسيم سيفضي على المدى البعيد إلى مشاكل في التوازن الحضاري بين هاتين الفئتين ومؤشرات هذه الأزمة بادية في حاضرنا إذ نرى واقع هجرة الأيدي العاملة والكفاءات العلمية إلى الغرب بحثاً عن الفرص المواتية التي لا يجدونها في دول العالم الثالث (القابعة في مستنقع التاريخ -حسب ما يرى فوكوياما-) مما سيزيد الأمر سوءاً في تلك الدول وسيخلق مشاكل إدارية وتنموية

في الدول المتقدمة كذلك، وبذا فقد تغرق الدول الغربية أيضاً في مستنقع التاريخ جزاء تفاقم هذه المشكلات فضلاً عن مشكلات البيئة وقلة الموارد الطبيعية وغيرها من المشكلات التي تهم الإنسانية كلها .

• في التاريخ لا توجد حقائق مطلقة أو نظريات ثابتة، وإنما توجد سنن وقوانين عامة تسهم في صنع التاريخ وهذا ما تحدده مجريات الأحداث فكيف لفوكوياما أن يقضي بعدم خطورة التوجهات الدينية وكيف لنا أن نغض الطرف عن تلك التجمعات الدينية والالتفاف حول الرموز الدينية خاصة في دول العالم الثالث (حسب تقسيم فوكوياما) وهذا واضح أيضاً في الدول الغربية فها هو (جورج دبيلو بوش) يستخدم الدين في حملته الانتخابية إيماناً منه بقوة الدين كعنصر إقناع الجماهير الناخبين الكاثوليك.

وبعد فثمة تعميمات كثيرة في أطروحة فوكوياما وأحكام جزافية تصب في الهدف الذي صدر عنه فوكوياما وهو تحقيق أسباب البقاء والديمومة لليبرالية الغربية وينبغي أن يُرجع البصر إلى هذه الأطروحة لسدّ فطورها وتقويم اعوجاجها. (1)

❖ صامويل هنتجتون: التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات

صامويل هنتجتون مدير معهد (جون أولوين) للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد، وقد أسندت إليه ما بين عامي (1977-1978) مسؤولية قسم التحليل والاستشراق في مجلس الأمن القومي الأمريكي وفي عام 1993 طالعنا هنتجتون بمقالة نشرت في مجلة (فورين أفيرز) وكانت هذه المقالة نتاج مشروع يحمل عنوان: "حول الإطار الأمني المتغير والمصالح القومية الأمريكية وفي هذا الطرح يتفق هنتجتون وفوكوياما في أن الصراع الأيديولوجي قد اختفى من العالم إلا أنه خلافاً لفوكوياما ينطلق من أن التاريخ لم ينته بعد، ويبيدي خشيته على مستقبل الغرب وهيمنته الكونية فهو يرى أن السياسة الدولية صارت تتحرك بعد انتهاء الحرب الباردة، خارج حقيبتها الغربية لتغدو مرتكزة على التفاعل بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية فتلك الحضارات صارت نداءً للغرب بوصفها محركاً للتاريخ وصانعة له.

أما نقطة الخلاف الثانية بين فوكوياما وهنتجتون فتتمثل في أن هنتجتون لا يعتقد بأن العالم يسير نحو حضارة كونية متناغمة وإنما يرى بأن صداماً وتناحراً حضارياً سيقوم بين الحضارة الغربية من جهة والحضارات الأخرى من جهة .

(1) للاستزادة انظر كتاب د. عبد السلام المسدي: العولمة والعولمة المضادة

وهنتجتون يرى في أطروحته أن المنبع العميق للصراعات المقبلة في العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً أو اقتصادياً في المقام الأول بل سيكون في الأساس حضارياً، وبما أن هنتجتون يرى بأن الصراع العالمي سيكون حضارياً في المقام الأول فقد عني في أطروحته بمفهوم الحضارة التي يرى فيها كيانا ثقافياً يتحدد بعناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات ، وبعناصر ذاتية تتركز على التماهي بين البشر .

وفي ضوء هذه النظرة للحضارة فقد قسم هنتجتون الحضارات إلى سبع أو ثمان هي: الغربية، اليابانية الكونفوشية، الإسلامية، الهندوسية، السلافية الارثودوكسية، الأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية.

أما عن الأسباب التي تؤدي إلى الاصطدام بين الحضارات فحصرها هنتجتون في ستة أسباب أساسية:-

1. التمايز بين الحضارات والاختلافات المتعلقة بالتاريخ واللغة والثقافة والدين بالشعوب من مختلف الحضارات تصورات مختلفة حول العلاقات بين الله والإنسان وبين الفرد والجماعة وبين المواطن والدولة وغيرها من التصورات المرتبطة بالحقوق والمسؤوليات وهنتجتون يرى أن هذه الاختلافات يمكن أن تكون سبباً قوياً لنشوب الصراع الذي لا يعني بالضرورة العنف والتناحر .

2. إن ضيق المسافات بين بلدان العالم جعل التفاعل يزداد بين منسبي الحضارات المختلفة وجعل إدراك الفروق القائمة فيما بينها أكبر ولتعزيز وجهة نظره يسوق هنتجتون مجموعة من الأمثلة من مثل: "ردود الفعل السلبية لدى الأمريكان نحو الاستثمارات اليابانية والتي تبدو أكثر اتساعاً وسلبيةً من تلك التي تعبر عنها الأمريكان تجاه الاستثمارات الكندية أو الأوروبية"⁽¹⁾

3. إن عمليات التحديث الاقتصادي والاجتماعي الجارية في كل العالم، تعمل على تعميق عملية الفصل بين الشعوب وبين هوياتهم المحليّة وتضعف دور الدولة وأهميتها الوطنيّة كمصدر للهويّة، وقد شهدت كل مناطق العالم بدايات نشاط ديني في هذا المجال، وذلك بصورة حركات دينية كتلك التي تسمى (الأصوليات) وهي ليست مقتصرة على الإسلام بل تتعداه إلى الغرب اليهودي والمسيحيّة والبوذية أيضاً، وعملية الانبعاث الديني في هذه الديانات تغذي أسس الهوية المشتركة والمشاريع التي تتجاوز الحدود الوطنية والوحدات الحضاريّة.

(1) د.فخري لبيب: صراع الحضارات أم حوار الثقافات، ص561

4. الخصائص والفروق الثقافية تبدو أقل حظاً في الوصول إلى وفاق من الخصائص والفروق السياسية.

5. نمو الاقتصاد الإقليمي أدى النمو الاقتصادي في بعض الأقاليم والنمو التجاري الذي شهده العالم أخيراً إلى تعزيز الوعي الحضاري لدى هذه الأقاليم ولا شك أن الثقافة المشتركة تلعب دوراً فاعلاً في تسهيل مجالات العلاقات الاقتصادية بين الدول والشعوب ذات الميول الثقافية والحضارية المتقاربة.

6. يرى هنتجتون أن الوعي الحضاري يتعزز بالدور المزدوج للغرب، من جهة نجد أن الغرب في قمة القوة ولكن في الوقت نفسه نجد أن من نتائج ذلك، تعرف بعض الحضارات غير الغربية عودة إلى ظاهرة الأصول فعندما فشلت الأفكار الغربية للاشتراكية في الشرق الأوسط بدأ التوجه للعودة إلى الأصول كعودة الهند إلى الهندوسية وعودة اليابان إلى الأسبوية. وإزاء هذا الطرح الأيديولوجي العسكري وقف الكثير من الكُتّاب والسياسيين والمهتمين بأمور الحضارات، نموها وديمومتها واضمحلالها؛ وقفوا أمام هذا الطرح مناقشين ومعلقين كل حسب قناعته ورؤيته الخاصة .

ومن هؤلاء المفكرين كان إدوارد سعيد في مقالته (الصراع بين التعريفات) التي قدمها محاضرة في جامعة كيو بطوكيو عام 1995، وحاول منت خلالها محاورة هنتجتون في طرحه حاسراً النقاب عن عيوب 9 هذه الأطروحة-فيما يراه-عيوبها الأكاديمية والأيديولوجية على حدّ سواء. ولكن قبل أن نعرض رأي إدوارد سعيد غفي أطروحة هنتجتون قد يكون من الإنصاف الأكاديمي والأمانة والموضوعية البحثية أن نذكر بعض الخصائص التي امتازت بها الانتقادات والردود التي وجهت إلى أطروحة هنتجتون (1) ومن أبرز هذه الخصائص:

1. حاول كثير من الباحثين أن يحققوا الموضوعية في ردودهم على هنتجتون غير أنهم اتّصفوا بالذاتية في العرض والطرح والتحليل، كما كان واضحاً أنهم قد أطلعوا على الأطروحة اطلاعاً سريعاً عابراً غير مُعمّق وانطلقوا في ردودهم من بعض النقاط التي مسّت حضاراتهم أو أديانهم وشرعوا في تفنيدها والرّد عليها.

(1) انظر بحث الأستاذ مصطفى الرزرازي مصطفى (أطروحة هنتجتون حول: الاصطدام بين الحضارات والاستشراق الجديد) المؤتمر الدولي حول (صراع الحضارات أم حوار الثقافات) القاهرة 10-12 مارس 1997.

2. نجد لدى جزء من الذين انتقدوا هنتجتون، أنهم لم يركزوا إلا على الجزء الأخير من المقال، وهو الجزء الذي يتحول فيه صمويل هنتجتون من محلل استراتيجي إلى خبير سياسي وعسكري رسمي، فيركزون على هذه النقطة متناسين كَوْن هذه المعلومات التي أتى بها دقيقة وصحيحة وإن كان هنتجتون قد كَبَّفها بالصورة التي توائم توجَّهه.

هاتان الملاحظتان لا تعنيان التعاطف مع هذه الأطروحة أو تأييد ما جاء فيها ولكن كان من الضروري أن نعلّق على المنهج العلمي الذي اتبعه هؤلاء الباحثون في ردّهم على الأطروحة.

وبالعودة إلى مقالة إدوارد سعيد نلاحظ أنّ رأي إدوارد سعيد انطلق من زاويتين اثنتين:-

1. رأيه في صمويل هنتجتون بوصفه صاحب الأطروحة والمنظر لها فهو يرى أنّه باحث غير أصيل بل ويطلق عليه لقب (الخبير في علم تدبير الأزمات) ويرى أن مراجعته في هذا الطرح من الدرجة الثانية التي توازي الطرح نفسه.

2. أما الزاوية الثانية فهي نابعة من فكر الأطروحة نفسه ويمكن تلخيصها بالأمور التالية:-

3. يرى إدوارد سعيد أنّ هذه النظرية تستمد أصولها من إطارين مرجعيين:-

1. فهي تدخل في السياق العام لآراء فرانسيس فوكوياما، وبول كنيدي وغيرهما ممن اشتغلوا

بالبحث عن أسباب الصراعات المحتملة في المستقبل .

2. فكرة الاصطدام بين الحضارات مبنية على طرح برناد لوسيس وشارل كروثمر وبالتالي فإن

هذه الأطروحة في مجملها ليست وحيدة دهرها أو فريدة عصرها وإنما سبق إلى الإشارة إلى بعض أفكارها.

أ. يرى إدوارد سعيد أنّ هنتجتون قدّم فهماً مختزلاً للإسلام ولغيره من الحضارات الست الأخرى غير الغربية، حين يضعها جميعاً في كفة ويضع الغرب وحده في كفة تلك إذاً قسمة جائرة، تقلل من شأن تلك الحضارات على عراقتها وتاريخها مُعليةً من شأن الغرب وحضارته.

وبعدّ فهذه كانت بعضاً من ملاحظات وماخذ إدوارد سعيد على هذه الأطروحة، التي قاربت

الصواب خاصّة ذاك الجزء المتعلق بمضمون الأطروحة ولعلّ من المفيد أن نذكر في نهاية هذا العرض أنّ هنتجتون لم يكن دقيقاً في استعماله لمفهوم الحضارة، حيث أعطاه معنىً جغرافياً (الغرب) ومعنىً عقدياً (الكونفوشية) ومعنىً عرقياً (السلافية)، ومعنى الدولة (اليابان) ومعنى الدين (الإسلام) ومعنى القادة (أفريقيا).

نجده غير قادر على تحديد العلاقة التي تربط العرب بالإسلام فلم يستطع أن يميز بين الحضارة العربية بمعنى الثقافة والتاريخ اللذين يختصان ثلاث مجموعات دينية (إسلامية، ومسيحية، ويهودية) وبين الحضارة العربية كهوية تحدد من خلال ارتباطها بالحضارة الإسلامية بوصفها إطاراً أعمّ وأشمل .

حوار ثقافات أم شجار حضارات ؟؟

كثيرة هي الكتب التي اتخذت من هذا العنوان محوراً قامت به ذواتها، وكثيرة هي الندوات والمحاضرات التي عُقدت للإجابة عن هذا السؤال، فيثور الجدل على امتداد العالم حول قضية الحضارات والثقافات وحول الأهداف المعلنة والخفية وراء تلك الأطروحات التي ناقشناها في الصفحات السابقة.

وهذا الجانب من الدراسات ليس بجزءاً وإنما له جذوره الضاربة في عمق التاريخ الدراسات الإنسانية والثقافية والحضارية، فكان من أهم الأفكار التي سيطرت في هذا المضمار الدعوة إلى قيام ثقافة كونية ومجتمع تسوده العدالة الاجتماعية أو بعبارة أخرى مجتمع المدينة الفاضلة وهي هدف وجوهر الرسائل السماوية، وإذا كانت العدالة والمساواة تمثل الشرط الوجوبي لقيام علاقات سوية بين أفراد الشعب الواحد فإنها من باب أولى أن تكون القاعدة التي يجب أن تسود العلاقات بين الأمم كافة؛ وبمعنى آخر، فإن المساواة والحرية والعدالة هي الدعائم الطبيعية والأساسية لكل مجتمع إنساني وهي من لوازم الوجود البشري.

فقد كثرت في السنوات الأخيرة المؤتمرات التي دعت إلى حوار الأديان محاولة التقريب بين القيم والمبادئ الأخلاقية والاجتماعية لكل منها محاولين تكون منظومة أخلاقية واجتماعية تكون دستوراً لأفراد القرية الكونية أو سكان المدينة الفاضلة.

وكان من مظاهر إحلال الأمن والسلام في العالم بصورة تعكس الرغبة في إيجاد مجتمع تسوده المحبة بعيداً عن أجواء التنافر والقتال ظهور بعض الجمعيات والمنظمات التي جعلت من التكافل الاجتماعي الإنساني شعاراً لها وغاية، مثل مؤسسة الصليب الأحمر والهلال الأحمر وغيرها من المؤسسات التي تقدم العون والمساعدة لأي شعب منكوب دون النظر إلى ثقافته أو ديانته أو لونه أو عرقه.

وفي مقابل هذه الصور المشرقة تفتقر إلى الأذهان صور أكثر دموية وأسوأ تلك صور الصراع الدائر في بقاع مختلفة من الأرض وبؤر متعددة للصراع والتوتر في العالم، فضلاً عن الصراع

التاريخ بين العرب والمسلمين والكيان الصهيوني، تتوزع بؤر الصراع على امتداد خارطة العالم، من أفغانستان إلى الشيشان فدارفور فالصومال والنزاع اليمني الأريتيري وأخيراً الاحتلال الأمريكي للعراق.

ومن خلال هذه الأمثلة التي ذكرناها وهي غيظ من فيض نلحظ أنّ محرّكات الصراع متعددة ومختلفة، منها ما كان دينياً عقدياً ومنها ما كان عنصرياً عرقياً، ومنها ما كان استعمارياً واقتصادياً، وإن كانت تبدو في ظاهرها صوراً لصراع عسكري.

هذا فضلاً عن الصراع الثقافي الذي تطمح فيه كل ثقافة صاعدة أو نازعة إلى الهيمنة العالمية إلى أن تظهر كثقافة إنسانية ودين للإنسانية يتجاوز المجتمعات التي أنجبته والحقب التي ظهر بها، "فإن نجحت هذه الثقافة في إظهار نفسها بوصفها ثقافة كونية إنسانية، ألغت كل ما عداها من الثقافات أو جبتها وقضت عليها بالهامشية واللافاعلية"⁽¹⁾

وفكرة الصراع في حدّ ذاتها ليست جديدة أو مستحدثة فقد بدأت من لدن بني آدم -عليه السلام- واستمرت وتعددت صورها وبواعثها غير أن مفهوم "صراع الحضارات" تحديداً بدأ يتقوّل ويأخذ شكله الأوضح بعد زوال الخصم التاريخي الأول والأعظم للنظام الرأسمالي في الغرب وهو (الاتحاد السوفيتي) وأنظمة الحكم الدائرة في فلكه في أوروبا الشرقية، التي نظر إليها رامسفيلد بعينيّ الهيمنة الإمبريالية للولايات المتحدة على العالم.

وهذا المفهوم تشرّب معان عنصرية وصليبية ويهودية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001موانتقل بجدله وتأثيره إلى عالم السياسة، وبدا أن الرئيس بوش وتشيني ورايس ورامسفيلد قد تبوّوا في بعض أقوالهم ومواقفهم وأفعالهم، مفهوم "صراع الحضارات" الذي نظر إليه كثير من العرب والمسلمين على أنه تبرير أيديولوجي لشنّ الولايات المتحدة وحلفائها لحرب عنصرية صليبية (يهودية في عرقها النابض) على الإسلام والمسلمين"⁽²⁾

وإذا أردنا أن نتعامل مع الحضارة تعاملاً بيولوجياً عضوياً⁽³⁾ ونرسم لها مساراً حياتياً نجد أنّ الحضارة الغربية قد فقدت مقومات الحياة والاستمرار وإن كانت تزخر بالمخترعات والتكنولوجيا الحديثة وتعندّ بقوتها العسكرية، وأساطيلها الحربية إلا أنها فقدت روحها وقيمها لذا اتخذت من فكرة (صراع الحضارات) ستاراً تخفي خلفه عجزها الروحي وانكسارها القيمي.

(1) برهان غليون: اغتيال العقل، ص127

(2) انظر، عيسى برهومة: صراع القيم الحضارية بعد الحادي عشر من أيلول 2001.

(3) كذا يفصّل قسطنطين زريق التعامل مع الحضارة (راجع كتابه: في معركة الحضارة)

وتبعاً لقوانين التأثير والتأثير نرى أنّ هذا التفاعل بين الحضارات بوجهيه (الحوار والصراع) لا بدّ مغض إلى علاقة تأثرية من نوع ما تنشأ بين الحضارات فإمّا أن يكون هذا التأثير إيجابياً حوارياً لتفتق عنه المدينة الفاضلة والقرية الكونية ذات الثقافة المشتركة وإمّا أن يكون هذا التأثير سلبياً صراعياً عندئذ فلا مشاحة في ضرورة قيام تلك الحروب التي لا يمكن أن تكون نتيجة للمنافسة الشريفة التي يدّعي الغرب تبنّيها في عرض حضارته والتسويق لها.

وبعد يبقى السؤال ماثلاً للعيان: لمن ستكون الغلبة؟ لحوار الثقافات أم لصراع الحضارات؟ ونحن-العرب والمسلمين- هل سيكون بوسعنا أن نتحرر من إسطار الغرب وسطوته ونلتفت إلى حضارتنا وتراثنا وتاريخنا فنذكر أمراً فاتت إدراكه ولكن لا يفوتنا استدراكه وهو أنّ التغيير سنّة الكون والأيام دول فعلينا بوصفنا أصحاب حضارة وتاريخ أن نبحت عن أنجع السبل لعرض حضارتنا، فتكون السلطنة، السلطنة على الحقيقة، فلا تحتاج إلى مراسم الملك ولا إلى شوكة السلاح، وربما كان هذا حلماً بعيد المنال، وأمثلاً يوقده القرب وينفيه المحال، لذا كان لزاماً أن نعلم أن الحلم لن يصبح حقيقةً حتى نغيّر ونتغيّر.

الخاتمة

وبعد هذا العرض لبعض آراء المنظرين في مسألة الحضارة والثقافة حوارهما وصراعهما، خلصت هذه الدراسة إلى الآتي:

• الحضارة كغيرها من المصطلحات الإنسانية كثرت فيها الاجتهادات والتعريفات، كل حسب تخصصه ورؤيته الخاصة، ولعلّ هذا الالتباس في تعريف الحضارة نابع من الالتباس في تصور السياقات التي ظهرت واستخدمت فيها فهناك من يساوي بين الحضارة والثقافة والمدينة وهناك من يفرق بينها.

• مالك بن نبي في طرحه الحضاري يصدر عن إيمان راسخ بأن مشكلات الشعوب هي في جوهرها مشاكل حضارية.

• نلاحظ أنّ فرانسيس فوكوياما قد جانب الصواب حين قسمّ دول العالم إلى دول الغرب ودول العالم الثالث لما في هذا التقسيم من طبقية واضحة وتعصب أيديولوجي شديد نحو الليبرالية الغربية وهذا هو التلمّ الأبرز في نسق نظرية فوكوياما.

• اجتهد هنتجتون أن يتجاوز الهنات التي وقع فيها من سبقه من المنظرين في هذا المضمار إلا أنه ومع استقرائه للواقع والأحداث انجرف نحو الأيديولوجيا التي يتبناها مدافعاً عن الغرب في مقابل الحضارات الأخرى.

• لابد للحضارات أن يتأثر بعضها ببعض لكن الأهم هو أن نضبط هذا التأثير ليسير في مساره الإيجابي بعيداً عن مظاهر القتال والحروب.

رؤية مستصفاة

إن الزمن ليس في صالح التردد، بل ينبغي الإقدام على خيارات مهمة لأننا على عتبة عصر جديد، وجدة هذا الوضع واضحة بذاتها، والناس في كل مكان يعرفون ذلك، وكذلك الحكومات، وإن لم يكن الجميع يعترفون بهذا، فبإمكاننا أن نمضي قدماً إلى عصر جديد من الأمن يستجيب للقانون والإرادة الجماعية والمسؤولية المشتركة بأن نضع أمن البشر، والكوكب في مركز كل شيء. فالعالم بحاجة إلى رؤية جديدة يمكن أن تحرك البشر في كل مكان لتحقيق مستويات أعلى من التعاون في مجالات الاهتمام المشترك والمصير الواحد. فزمن التغير لا يمكن فيه استكناه الأنماط المستقبلية بوضوح هو حتماً زمن اللايقين وهناك الحاجة إلى التوازن والحذر أيضاً إلى خلق سفر الرؤيا التي توحد آمال هذه (القرية العالمية) التي من المرجح أن تصبح أكثر سلماً وأمناً بدرجة كبيرة بالنسبة لمعظم سكانها بمجرد أن تشفى من التمزقات التي سببها الحروب.

لقد أعلنت ديباجة ميثاق الأمم المتحدة تصميم شعوب العالم على: " أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار".

إنه لم يحدث من قبل على الإطلاق لمثل هذا العدد الكبير من الناس مثل هذا القدر من القواسم المشتركة فيما بينهم، وفي ظل هذا الجوار يتعين على المواطنين أن يتعاونوا لخدمة أغراض كثيرة للمحافظة على السلم والنظام وتوسيع مساحة الرفاه العالمي، ونبذ ثقافة العنف، وكبح جماح انتشار آلة التدمير بشتى صورها. فقد جاء في بحث لـ (بابارا وورد) المقدم للجنة العدل والسلام: "إن أهم تغيير يستطيع أن يقوم به الناس هو تغيير طريقتهم للنظر إلى العالم أننا نستطيع أن نغير دراستنا ووظائفنا وجيراننا بل بلادنا وقاراتنا ونظل رغم هذا كما كنا دائماً".

ولكن دعونا نغير زاوية رؤيتنا الأساسية وسوف يتغير كل شيء؛ أولوياتنا وقيمنا وأحكامنا ومطالبنا وقد حدث مراراً وتكراراً في تاريخ الأديان أن حدد هذا الانقلاب الشامل في التخيل بداية

حياة جديدة، ومنعطفاً للقلوب وبصيرة يرى الناس من خلالها بعيون جديدة، ويفهمون بعقول جديدة
ويحولون طاقاتهم إلى طرق جديدة للمعيشة.